أبو يزيد البسطامي

أعـلام التصـوف

أبو يزيد البسطامي

هو طيفور بن عيسى بن آدم بن شروسان، ولد في بسطام من أصل مجوسي، أبو يزيد البسطامي اسمه طيفور بن عيسى بن علي أحد مشايخ الصوفية، وكان جده مجوسياً فأسلم، وكان لأبي يزيد أخوات صالحات عابدات،، نسبت إليه أقوال شنيعة توفي سنة (261هـ) ولم يعرف عنه التأليف.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وقد حُكي عنه شطحاتٌ ناقصاتٌ، وقد تأوَّلها كثيرٌ من الفقهاء والصوفية، وحملوها على محاملَ بعيدةٍ، وقد قال بعضُهم: إنَّه قال ذلك في حال الاصطلام[1].

ومن العلماء مَن بدّعه وخطّأه وجعل ذلك من أكبر البدع، وأنَّها تدلُّ على اعتقادٍ فاسدٍ كامِنٍ في القلب ظهر في أوقاته [2].

وقال الإمام الذهبي: نعوذ بالله من الإشارات الحلاجية، والشطحات البسطامية، وتصوف الاتحادية، فواحزناه على غربة الإسلام والسنة [3].

وكانت له عدة شطحات من ذلك قوله ناعياً على علماء الشريعة مفاخراً لهم: أخذتم علمكم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، حدثني قلبي عن ربي، وأنتم تقولون: حدثني فلان، وأين هو؟ قالوا: مات، عن فلان وأين هو؟ قالوا: مات [4].

(1) الاصطلام: القطع عن الوجود أو الفناء - والغيبة.
(2) البداية والنهاية: 11-38.
(3) سير أعلام النبلاء، 13/ 442.
(4) الفتوحات المكية، 1/ 365، المواهب السرمدية، ص 49، الأنوار القدسية، ص 99، طبقات الشعراني، 5/1، تلبيس إبليس ص 344، الرحمة الهابطة، ص 309.

ويقول أبو يزيد البسطامي: خُضنا - أي نحن الأولياء - بحوراً وقفت الأنبياء بسواحلها [1].

ويقول أيضاً: تالله إن لوائي أعظم من لواء محمد صلى الله عليه وسلم، لوائي من نور تحته الجن والإنس كلهم من النبيين [2].

وقال الغزالي غفر الله له: وكان أبو يزيد وغيره يقول: ليس العالِم الذي يحفظ من كتاب، فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً، إنما العالِم الذي يأخذ علمَهُ من ربّه أيّ وقتٍ شاء بلا حفظٍ ولا درسٍ! [3].

ويحدثنا عنه أبو حامد الغزالي فيقول: حُكي أن شاهداً عظيم القدر من أعيان أهل (بسطام) كان لا يفارق مجلس أبي يزيد البسطامي فقال يوماً: أنا منذ ثلاثين سنة أصوم الدهر ولا أفطر، وأقوم ولا أنام، ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئاً، وأنا أصدق به وأحبه!

فقال أبو يزيد: ولو صمت ثلاثمائة سنة، وقمت ليلها ما وجدت من هذا ذرة!! قال: ولم؟ قال: لأنك محجوب بنفسك. قال: فلهذا دواء؟ قال: نعم. قال: قل لي حتى أعمله. قال: لا تقبله. قال: فاذكره لي حتى أعمل. قال: اذهب إلى المزين فاحلق رأسك ولحيتك، وانزع هذا اللباس، واتزر بعباءة، وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزاً، واجمع الصبيان حولك، وقل.. كل من صفعني صفعة أعطيته جوزة، وادخل السوق، وطف الأسواق كلها عند الشهود وعند من يعرفك، وأنت على ذلك!!

(1) الإبريز، 212/2.
(2) الجيلي، الإنسان الكامل، ص 16.
(3) إحياء علوم الدين، 24/3، انظر موسوعة الرد على الصوفية.

فقال الرجل: سبحان الله، تقول لي مثل هذا؟ فقال أبو يزيد: قولك.. " سبحان الله " شرك!! قال: وكيف؟ قال: لأنك عظمت نفسك، فسبحتها، وما سبحت ربك. فقال: هذا لا أفعله، ولكن دلني على غيره. فقال ابتدئ بهذا قبل كل شيء. فقال: لا أطيقه. فقال: قد قلت لك.. إنك لا تقبل.. !(1)

ويذكر البسطامي كذلك عن نفسه ما يأتي: رفعني مرة فأقامني بين يديه، وقال لي: يا أبا يزيد! إن خلقي يحبون أن يروك، فقلت: زيني بوحدانيتك، وألبسني أنانيتك، وارفعني إلى أحديتك، حتى إذا رآني خلقك قالوا: رأيناك، فتكون أنت ذاك، ولا أكون أنا هنا (2).

وحكى القشيري في ترجمة أبي يزيد البسطامي وسئل عند ابتدائه وزهد، فقال: ليس للزهد منزلة، فقيل له: لماذا؟ فقال: لأني كنت خلال ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليوم الرابع خرجت منه، ففي اليوم الأول زهدت في الدنيا وما فيها، وفي اليوم الثاني زهدت في الآخرة وما فيها، وفي اليوم الثالث زهدت فيما سوى الله تعالى، فيما كان اليوم الرابع لم يبق لي سوى الله تعالى فَهِمْتُ، فسمعت قائلاً يقول: يا أبا يزيد لا تقو معنا، فقلت: هذا الذي أريد، فسمعت قائلاً يقول: وجدت وجدت (3).

قال أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه المحن: وأنكر أهل بسطام على أبي يزيد البسطامي ما كان يقول حتى إنه ذكر للحسين بن عيسى أنه يقول: لي معراج كما كان للنبي صلى الله عليه وسلم معراج

(1) إحياء علوم الدين، 4 / 358.
(2) اللمع، ص461، وانظر أيضاً موسوعة الرد على الصوفية.
(3) الرسالة القشيرية، ص 395.

فأخرجوه من بسطام، وأقام بمكة سنتين ثم رجع إلى جرجان فأقام بها إلى أن مات الحسين بن عيسى ثم رجع إلى بسطام.

وقال القشيري: قيل لأبي يزيد: ما أشد ما لقيت في سبيل الله؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيت نفسك منك؟ قال: أما هذا فنعم، دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني فمنعتها الماء سنة[1].

وكان يوماً يرتدي جبة ففتحها وقال: سبحاني ما أعظم شاني، ما في الجبة إلا الله [2].

ونقل ابن الجوزي عن أبي يزيد أنه قال: إن لله عباداً لو بصقوا على جهنم لأطفؤوها ولقد وددت أن قامت القيامة حتى أنصب خيمتي على جهنم، فسأله رجل: ولم ذاك يا أبا يزيد؟ فقال: إني أعلم أن جهنم إذا رأتني تخمد فأكون رحمة الله للخلق. ثم قال: اللهم إن كان في سابق علمك أن تعذب أحداً من خلقك بالنار فعظم خلقي حتى لا تسع معي غيري. وقال: وما النار. ؟ والله لئن رأيتها لأطفئنها بطرف مرقعتي.

وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها لا يحتج بها إذ ظاهرها إلحاد، مثل: سبحاني، وما في الجبة إلا الله. ما النار؟ لأستندن إليها غداً، وأقول: اجعلني فداء لأهلها، وإلا بلعتها. ما الجنة؟ لعبة صبيان، ومراد أهل الدنيا. ما المحدثون؟ إن خاطبهم رجل عن رجل، فقد خاطبنا القلب عن الرب.

(1) الرسالة القشيرية، ص 395.
(2) شذرات الذهب، 142/2، فيض القدير، 456/1.

وقال في اليهود: ما هؤلاء؟ هبهم لي، أي شيء هؤلاء حتى تعذبهم؟

قال السلمي في " تاريخ الصوفية ": توفي أبو يزيد عن ثلاث وسبعين سنة، وله كلام حسن في المعاملات.

قال منصور بن عبد الله: سمعت أبا يزيد يقول: عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشدَّ عليَّ من العمل ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لبقيت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

وقيل. لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلَّه [1].

مواقف من حياته - غفر الله له:

فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه؟

قال أبو نصر السرَّاج: قال لي أبو يزيد: قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهر، فمضينا إليه؛ فلما خرج من بيته، ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه، وقال: هذا غيرُ مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكيف يكون مأموناً على ما يدَّعيه؟

كفانى مؤنة النساء

(1) تلبيس إبليس، ص 341، 343، 346، وانظر موسوعة الرد على الصوفية، طبقات الصوفية، 67 - 74، حلية الأولياء، 10 / 33 - 42، المنتظم، 5 / 28 - 29، معجم البلدان: " بسطام "، اللباب: 1 / 152 - 153، وفيات الأعيان: 2 / 531، ميزان الاعتدال: 2 / 346 - 347، عبر الذهبي: 2 / 23، البداية والنهاية: 11 / 35، طبقات الأولياء: 245، 398 - 402، النجوم الزاهرة: 3 / 35، شذرات الذهب: 2 / 143 - 144، سير أعلام النبلاء، 13 /86.

وقال أبو يزيد: لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفيني مؤنة الأكل ومؤنة النساء، ثم قلت: كيف يجوز لي أن أسأل هذا ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه؟ فلم أسأله. ثم إن الله سبحانه وتعالى كفاني مؤنة النساء؛ حتى لا أُبالي استقبلتني امرأة أو حائط.

فاحتشمت أن أذْكره سبحانه وتعالى

وحكى عميٍّ البسطامي عن أبيه أنه قال: ذهب أبو يزيد ليلة إلى الرباط، ليذكر الله، سبحانه، على سور الرباط، فبقي إلى الصباح لم يذكر، فقلت له في ذلك، فقال: تذكَّرتُ كلمة جرت على لساني في حال صباي، فاحتشمت أن أذْكره سبحانه وتعالى [1].

من كلامه - غفر الله له:

- لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة [2].

- إن لله خواص من عباده لو حجبهم في الجنة عن رؤيته لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار بالخروج من النار [3].

- قال أبو يزيد: لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره.

(1) الرسالة القشيرية، ص 13.
(2) الرسالة القشيرية، ص 13.
(3) حلية الأولياء، 10 /34.

- جاء رجل إلى أبي يزيد فقال: أوصني فقال له: انظر إلى السماء فنظر صاحبه إلى السماء فقال له أبو يزيد: أتدري من خلق هذا؟ قال: الله قال أبو يزيد: إن من خلقها لمطلع عليك حيث كنت فاحذره [1].

* * *

(1) حلية الأولياء، 10 /354.